د. خيرالدين دعيش

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة سطيف 2

مقياس نظرية الأدب للسنة الثانية ليسانس

مدخل إلى نظرية الأدب 1

عناصر الموضوع :

1 – الأدب والدراسة الأدبية

2 – نظرية الأدب (المفهوم)

3 – نظرية الأدب وعلاقتها بالنقد وتاريخ الأدب

---

2 – نظرية الأدب (المفهوم) :

ماذا نقصد بالنظرية عموما ؟ وبالخصوص ماذا نقصد بنظرية الأدب ؟

إنّ تعريف النظرية العلمية يبدأ من قبيل ملاحظة أنّ المصطلح الأجنبي Theory مشتق من المصطلح اليوناني Theoria بمعنى (ينظر) والنظرية بوجه عام هي نوع من المعرفة العقلية الخالصة التي توضّح الأشياء والظواهر توضيحا لا يعوّل على الواقع ، أمّا المعنى الأكثر دقّة وحداثة فهو أنّها مجموعة من القوانين العلمية ومن المبادئ والقضايا العامة المرتبطة ارتباطا منهجيا ومنطقيا ، والتي تتناول بالتفسير والتحليل ظواهر وحقائق مترابطة ومتّصلة بموضوع ما ، كما تتناول كذلك التعميمات التجريبية المتصلة بهذا الموضوع (المعجم الفلسفي – القاهرة – ص 302) .

إلاّ أنّ معنى كلمة نظرية واستخداماتها وما ترمي إليه تعدَّدَ بتعدّد اتّجاهات الدارسين واختلاف معين كلّ منهم ، وقد عمل " لاسي Lacy " (قاموس الفلسفة) على أن يُجملَ معاني النظرية في أربعة أوجه :

1 – قد تكون النظرية فرضا واحدا أو عدّة فروض ، أو قضايا من هذا القبيل ، وتُعدّ ذات طابع تأمّلي في هذه الحالات .

2 – قد تكون قانونا عن أمور غير مُشاهَدَة مثل الإلكترونات ومثل التطوّر ، ويمكن أن نطلق على مثل هذه الأمور نظريات في بعض الأحيان ، وذلك لأنّ البيّنة على ما هو غير مرئي قد يكون دليلا غبر حاسم .

3 – وقد تكون النظرية نسقا موّحدا من القوانين أو الفروض بحيث يتميّز هذا النسق بقوّة تفسيرية .

4 – وقد تعني النظرية مجال دراسة محدد ، كأن نقول في الفلسفة مثلا : نظرية المعرفة ، نظرية منطقية .... ، وقد يحدث تداخل بين هذه المعاني بحيث تجمع النظرية الواحدة أكثر من معنى من المعاني السابقة ، فما حدود نظرية الأدب ؟

نظرية الأدب هي مجموعة من الآراء والأفكار المتّسقة والعميقة والمترابطة ، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محدّدة ، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته (جوهره) ووظيفته ، وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا في سبيل استنباط مفاهيم عامة وتأصيلها لتبيّن حقيقة الأدب وآثاره .

غير إنّ العمق والقوّة والاتّساق والاستناد إلى فلسفة أو نظرية في المعرفة لا يعني بحال أنّ أيّة نظرية أدبية خالية من الثغرات أو نقاط الضعف ، فكلّ نشاط ثقافي مرتبط بمراحله الاجتماعية والحضارية ، وكلّ نشاط في نظرية الأدب مرتبط أيضا بالوضع التاريخي والأدبي الذي استند إليه في استنباط آرائه وأفكاره .

ولا شكّ بأنّ مهامَ نظرية الأدب التي تتمثّل في البحث عن نشأته وطبيعته ووظيفته ، تعني الاهتمام بمقومات الأدب كحقيقة عامة في أيّ زمان وأي مكان وفي أيّة لغة كُتبَ بها . فالبحث في نشأة الأدب يعني بيان العلاقة القائمة بين الأديب وبين العمل الأدبي ، كما أنّ البحث في طبيعة الأدب يعني بيان جوهر الأعمال الأدبية ، أي خصائصها وسِماتها العامة ، وأخيرا فإنّ البحث في وظيفة الأدب يعني بيان العلاقة بين الأدب وبين جمهور قرائه ، أي بيان أثر الأدب في المتلقين ، لذا فإنّ الأديب والعمل الأدبي وجمهور القرّاء أركان أساسية لوجود الأدب ، وإدا انتفى ركن من هذه انتفى وجود الأدب والنظرية الأدبية .

لكن الاهتمام بهذه الأركان الثلاثة يدلّ على أنّ مهامَ نظرية الأدب تتداخل مع النقد الأدبي وتاريخ الأدب كذلك ، فالناقد على سبيل المثال قد يهتم بالمحاور الثلاثة كما قد ينصب اهتمامه على إبراز الوظيفة الاجتماعية للنصّ المدروس ، بل يجب على الناقد التسلّح بمفهوم ما للأدب

عامة ، أي لا بدّ له من الاستناد إلى نظرية في الأدب قبل تعامله المباشر مع النصوص الأدبية . كما أنّ المؤرّخ للأدب لا بدّ له من مفاهيم عامة للتمييز بين الأعمال الأدبية وبين غيرها من النصوص .

غير إنّ هذا التداخل والتشابك والصلات الضرورية بين النقد الأدبي وبين النظرية الأدبية وبين تاريخ الأدب لا يعني بأنّه ليس لكلّ منهم استقلالية في ميدانه الخاص ، على الرغم من حقيقة تعاملهم مع النصوص الأدبية ، إذ إنّ لكلّ منهم طريقةً خاصة في التعامل مع النصوص الأدبية ، يحّدها الهدف المتميّز لكل مجال ، فالمؤرّخ الأدبي يتعامل مع النصّ ليبيّن الظروف والملابسات التي أحاطت به وبصاحبه ، والناقد يتعامل مع النصوص ليبيّن مواطن الجودة والرداءة وأسبابهما ، أو ليبيّن لنا مدى انفعاله به وتجاوبه معه ، أو ليصدر لنا حكما وتقييما في حقّ هذا النصّ . أمّا المنظّر الأدبي فإنّه يهتم بجملة من النصوص لا لكي يصدر أحكاما أو يصوّر انفعاله إزاء هذه الأعمال ، وإنّما لكي يستنبط مبادئ عامة شاملة تبيّن حقيقة الأدب وأثره كظاهرة عمة أيضا ، ولكي نوضّح التمايز بين هذه الحقول والمجالات نقول : إنّ الدارسَ إذا وصفَ النصّ بأن حقّقه ودرس ما حوله من عوامل البيئة والشخصية والسيرة الذاتية والمعطيات النصية ، أي حقّق في الصلة بينه وبين منتجه وبينه وبين ظروف الحياة من حوله كان هذا تاريخا للأدب ، وإذا حكم على النصّ حكما ، أي إذا وصف انفعاله به وطبّق بعض الموازين عليه أو جال في مناحي الحياة والفنّ من خلال هذا النصّ ، فكلّ هذا حكم ولعلّه تعليل للانفعال ليس إلاّ (إذ الحكم في حدّ ذاته لا قيمة له إلاّ بحيثياته ، أي بتطابقه مع موازين نقدية عامة أو موازين ذوقية ومعيارية ، فكلّ هذا نقد أدبي صرفٌ ، أمّا إذا وصفَ الدارس الأدب عامة ، مبيّنا كنهه وحقيقته وصفاته وآثاره ، خرج وصفه هذا إلى ما نسميه بنظريات الفنّ الأدبي . فتاريخ الأدب والنقد يهتمان بالنص ليصدرا أحكاما زمنية وقيمية ، أمّا النظرية فتتعامل مع حقيقة الأدب حيث لا يكون انفعال أو إصدار للأحكام بالجودة والرداءة ، وعلى الرغم من هذا التمايز فلابدّ من تأكيد حقيقة مهمّة وهي : أنّنا حين نعرض لنظرية الأدب منذ ما قبل الميلاد إلى أيامنا هذه ، فإنّنا نتوخى منها أن تعيننا على فهم الأعمال الأدبية وتحليلها ونقدها .

خلاصة :

1 – أنّ الأدب ليس نظاما خاضعا لاعتبارات الزمن ، كأنّه ليس سلسلة من الأعمال المنظمة حسب نسق تاريخي ما (الظاهرة الأدبية ليست ظاهرة تاريخية) .

2 – أنّ نظرية الأدب مجال معرفة يشتغل ويهتم بمبادئ الأدب ومقولاته ومعاييره العامة .

3 – إنّ الدراسات التحليلية والتأويلية للأعمال الأدبية هي من شأن اهتمام النقد الأدبي وتاريخ الأدب .

4 – قد يشمل مصطلح نظرية الأدب كلاّ من نظرية النقد الأدبي (كنظرية لا كممارسة) ونظرية التاريخ الأدبي (كنظرية وتحديد للوقائع والظواهر .

5 – أنّه من المستحيل وضع نظرية للأدب إلاّ على أساس ما تفيده هذه النظرية من النقد ومن التاريخ ، فالمعايير والخطط والمقولات والمبادئ لا يمكن التوصّل إليها من فراغ ، والعكس بينها أيضا وارد .

يقول " رنيه وليك " : ((فالنظرية الأدبية تدرس مبادئ الأدب وأصنافه ومعاييره ، وما إلى ذلك ، بينما تنتمي الدراسات التي تركّز اهتمامها على الأعمال الأدبية نفسها إمّا إلى النقد الأدبي (وتتّسم هذه بثبات أسلوب التناول) ، وإمّا إلى التاريخ الأدبي ، لكن لا شكّ أنّ النقد الأدبي كثيرا ما يُستخدم بشكل يجعله يشتمل على النظرية الأدبية أيضا ، وقد دعوتُ إلى ضرورة التعاون بين هذه الأنماط الثلاثة من أنماط الدراسة ، فقلتُ : إنّها تستلزم بعضها بعضا بشكل يبلغ من شموله أنّنا لا نستطيع تصوّر النظرية الأدبية دون نقد وتاريخ ، أو النقد دون نظرية وتاريخ ، أو التاريخ دون نظرية ونقد)) (كتاب : مفاهيم نقدية ، ص 7) .